حرب القرم

الفصل الاخير ومعاهدة باريس

لما اخلى الروس سفاستوبول كان عدد جنود الدول المتحالفة ٢٢٩ الفاً وجاءت نجدة للبرنس غورتشاكوف فبلغ عدد جنوده ١٥٠ الفاً فابق ٥٠ الفاً منهم في جوار سفاستوبول وبكتشي سراي وسفربول وأرسلت عمارة كبيرة من انكلترا وفرنسا للاستيلاء على الحصون الساحلية فوصلت الى امام حصن كنبرن في الرابع عشر من سبتمبر وبادرته باطلاق المدافع واستولت عليه عنوةً واصبت حاميته فلما رأى الروس ذلك نسفوا حصن اتشاكوف . وكان مراد نبوليون ان يجعل حصن كنبرن قاعدة للاعمال الحربية على الضفة الشمالية من نهر نيبر ولكن كان فصل الشتاء قد ابتدأ فعدل عن ذلك واستمرت التحصينات كل مدة الخريف وفي الخامس عشر من نوفمبر نُسف مخزن كان فيه خمسون الف كيلو غرام من البارود وستمئة الف خرطوشة واربعة آلاف قنبلة وكثير من المواد الملتهبة . قال الدكتور رصل في وصف ذلك ما ترجمتهُ

«كنت راكباً في طريقي من المعسكر وانا اقرأ مكاتيبي وقد وصلت الى اكمة تشرف على ما حولها واتفق اني التفت الى مكان المخزن حالما نُسف فبهت وانقطع نفسي . ان القلم ليعجز عن وصف ما حدث زلزلت الارض زلزالها وتمايلت البيوت الكبيرة كقصبة تحركها الريح وزالت ثقة الانسان برسوخ الارض تحت قدميه . وموضع النار يحرق فاي امان على المعسكر كلهِ بعد هذه الحادثة ارتفع عمود من النار والدخان والحديد الى علو شاهق العجز عن تقديره ثم انفرج في الجو كأنهُ اغصان شجرة ظللت نصف المعسكر وصبت عليهِ النار والحمم . كان لون العمود رمادياً قاتماً تخللهُ خطوط حمراء وادخنة بيضاء تدل على القنابل المتفجرة فيه . وبقيت هذه الشجرة النارية منتصبة بين الارض والسماء دقيقة من الزمان ثم جعلت فروعها تنتشر وتتلوى وتندفع منها سبائخ من الدخان ذات اليمين وذات اليسار وتساقط كأن سائلاً وصبت فيهِ رواسب من القنابل والاشلاء والمقذوفات الحديدية . وكان الصوت الاول رعداً قاصفاً يصمُّ الآذان ثم تلتهُ اصوات انفجار القنابل كقصف المدافع وهي تطلق على المدن والحصون »

ولم يعلم سبب هذا الانفجار وقد قتل بهِ من الفرنسويين ٣٨ وجرح اكثر من مئة وقتل من الانكليز ٢١ وجرح ١١٦

عمر باشا

الجنود العثمانية

الجنرال بلسه

جنود الزواف الفرنسوية

اورد رغلان

الجنود الروسية

وكان الفرنسويون يودون الابقاء على الخياض والحصون لانهم أنفق عليها بدرات الاموال وكأنها بنيت لتقاوي الدهر وبعضها كان محفوراً في الصخر الاصم . وبقيت مبانٍ ضخمة لم يتمكن الروس من هدمها قبل مغادرتهم المدينة فنزلها الفرنسويون ولكن جاءتهم الاوامر من باريس في اواسط يناير سنة ١٨٥٦ ان ينسفوا حصن نقولا والتكنات الكبيرة . ولم يكن ذلك بالامر السهل لان نسف الحصن انتضى خمسين الف كيلوغرام من البارود وقد قال الكولونل لنغلوى في نسفه ما ترجمتهُ : « رأينا ذلك البناء الذي كنا نحسبهُ راسخاً لا ينقض قد قلع من اصوله وصعد متثاقلاً في الهواء ثم وقعت جدرانهُ انقاضاً متراكمة وكانت قبل دقيقة آية في الاتقان وتمزقت كل اجزائهِ وتحطمت وتراكمت بعضها فوق بعض وجعلت القنابل تنطلق من بينها مصحوبة باصوات كالرعود وظهر لنا كأنها آتية الينا تسوقها الرياح وسط سحب من الدخان والغبار لا اكثف منها ولا ارهب . وكانت الآذان المصغية تسمع وقوع تلك القذائف فتصم . وفي لحظة من الزمان قضي الامر وامسى ذلك الحصن العظيم اكمة من الانقاض »

وظهر كأن روسيا كانت لا تزال عازمة على مداومة القتال فاعلن غورتشاكوف انهُ لا يترك للاعداء بلاداً تعمَّد فيها القديس ولمير . ووعد القيصر شرقاء مملكتهِ باستمرار القتال واتى القرم بعد ان نشر في البلاد منشوراً قال فيهِ « ان روسيا أُصيبت بمثل ذلك وباشد منهُ من قبلُ ولكن الله كان يبادر الى نصرتها بعونهِ الالهي ونحن متكلون عليهِ الآن فيعيننا ويحمينا » ولما زار القرم بكى على خراب سفاستوبول ونزع قيادة الجيش من غورتشاكوف واعطاها للجنرال لودرس واعلنت جريدة النجلة الروسية ان الحرب اجدأت حينئذٍ وان الروس سيبنون حصناً اعظم من سفاستوبول واقوى . ولكن لا شبهة في ان روسيا كانت قد سئمت الحرب وصارت تود الخلاص منها فقد نقدت بها مئتين وخمسين الفاً من رجالها واستنزفت كل النقود من خزائن الحكومة ولم يعد لنقودها الورقية قيمة في الاسواق المالية

اما الانكليز فزاد ميلهم الى الحرب وصاروا يرغبون في منافسة فرنسا بكثرة جيوشهم وحسبوا ان ما جرى لا يكفي لقهر روسيا لكن النمسا رأت ان الغاية المقصودة من الحرب قد حصلت فخاطبت الدول في امر الصلح . وكانت روسيا قد مالت اليهِ حينئذٍ لان جنودها فازت فوزاً مبيناً في ارمينية فتعزت بذلك عما اصابها من الفشل في القرم والفلاخ والبغدان

اما الحرب في ارمينية فكان مدارها على القارص وهي حصن من امنع حصون الدولة في آسيا فلما نشبت حرب القرم امرت الدولة بارسال خمسين الفاً من جنودها لحمايتها وحماية

رضروم وبعث بالقائد المجري خيون ليكون مع حامية القارص فدارت الدائرة عليهم في المعارك الاولى مع الروس في بفازيد وكرك دره فلجأوا الى القارص وتحصنوا فيها . ودارت رحى الحرب في بلاد القرم حينئذٍ فاتجهت قوات الروس اليها ولكن القارص بقيت نصب عيونهم ولذلك بعثت الحكومة الانكليزية اليها بالجنرال وليمس ليساعد حاميتها برأيه فوصلها في ١٤ سبتمبر سنة ١٨٤٥ ووجد فيها ٢٨٠٠٠ من الجنود العثمانية ولكنهم كانوا في حالة يرثى لها من الاهمال فان بعضهم كان لم يأخذ شيئاً من راتبه منذ سنتين فكرّرت شكاويه من ذلك . وهاجمها الروس في ١٦ يونيو سنة ١٨٥٥ فتمكنت حاميتها من صدهم عنها بقيادة الجنرال وليمس ومن معهُ من الضباط الانكليز ولما رأى الروس ذلك احاطوا بها ومنعوا الزاد عنها ثم هاجموها في ٢٩ سبتمبر من ثلاث جهات في وقت واحد لكن الحامية ردتهم على اعقابهم بعد ان قاومتهم سبع ساعات متوالية . وقد قال الجنرال وليمس في ذلك « ان الجنود العثمانية برهنت على انها تستحق اعجاب اوربا بها واثبتت ان لها مقاماً بين ابسل جنود العالم » . وقد ترك الروس وراءهم خمسة آلاف من قتلاهم وحملوا معهم سبعة آلاف من القتلى والجرحى واما الحامية فلم تفقد الف رجل

ولكن لا شجاعة مع الجوع فعض الجوع الحامية بنابهِ وصار الناس يقتلعون جذور النباتات من الارض ويقتاتون بها وصارت الكلاب تنبش المزق وتأكلهم . وكان عمر باشا قد بادر الى نجدة القارص ووصل الى نهر اخور بعشرين الفاً اكثرهم من الجنود العثمانية وفيهم بعض الفرنسويين والانكليز لكنهُ وجد الروس واقفين لهُ بالمرصاد لحاول عبور النهر من اماكن عديدة والروس يصدونهُ واخيراً تمكن من عبوره فوقف لهُ الروس وراء نهر آخر ومنعوهُ من عبوره . وكانت وطأت الجوع قد اشتدت على الحامية ودبَّ الفناء فيها فاستأمنت في ٢٤ نوفمبر بعد ان صبرت صبر الابطال فعاملها الروس احسن معاملة خرجت باسلحتها بكل امجاد الحرب والقت سلاحها في مكان عُيّن لذا وسمح للضباط ان يبقوا عيونهم معهم وأخذ رعايا فرنسا وانكلترا وسردينيا اسرى حرب وبقي السكان في بيوتهم تحت حماية روسيا وسمح للجنود العثمانية ان ترجع الى بيوتها . وكان بين الاسرى المشير يوسف باشا القائد العام واربعة باشاوات غيرهُ والجنرال وليمس واركان حربهِ ووجد في القلعة ١٣٠ مدفعاً وكثير من الاسلحة فهذا الفوز عزّى روسيا ورغبها في الصلح

وكان نبوليون ايضاً راغباً في الصلح وودَّ ان يكون عن يدهِ تخاطب روسيا في ذلك

وقام الكونت استرهازي من فينا في اواسط دسمبر ومعهُ مذكرة للقيصر في صورة بلاغ نهائي وفيهِ الضمانات الاربع المذكورة في شروط الصلح السابقة منقحة حتى توافق مقتضى الحال . فاستاءت روسيا من تعديل الحدود في بسارابيا لانها كانت قد استولت على القارص وحسبت ان ردها كافياً مقابل استرجاعها سفاستوبول واوباتوريا وكنبرن وقرطش . وبعد مذاكرات طويلة امضى القيصر الشروط الابتدائية وفي اول فبراير وافقت فرنسا وانكلترا على طلب النمسا وعينت باريس لعقد مؤتمر يقرر الشروط النهائية وهي معاهدة باريس المشهورة

وعقد المؤتمر في باريس من الكونت ولوسكي والبارون ده بوركني عن فرنسا ولورد كلارندن ولورد كولي عن انكلترا والصدر عالي باشا وجميل بك عن تركيا وكونت كافور ومركيز فلامارينا عن سردينيا وكونت بول شوتستين وبارون هبنر عن النمسا وكونت اوتوف وبارون برونو عن روسيا وطلب من ملك بروسيا ان يرسل ممثلين من قبلهِ ايضاً وتمَّ الاتفاق على ٣٤ مادة خلاصتها ان الصلح تمَّ بين الدول المتحاربة وان تخلى البلاد التي احتلتها الجنود من الطرفين اي البلاد العثمانية التي احتلتها الجنود الروسية مدة الحرب والبلاد الروسية التي احتلتها جنود الدول المتحالفة وان يصدر عفو عام عن كل الذين اشتركوا في هذه الحرب ويرد الاسرى الى بلدانهم وبان يشترك الباب العالي في فوائد الحقوق الاوربية العامة اي تكون الدولة العثمانية مثل سائر الدول الاوربية وان يحترم استقلالها تمام الاحترام ويمنع كل احد من محاولة تجزئتها

ويقال بنوع عام ان الدولة العلية خرجت من هذه الحرب لا عليها ولا لها الاَّ ما خسرتهُ من الاموال وسفح الرجال وان الخسارة الكبرى وقعت على الروس ولم يربح الاَّ الذين يضمنون المدافع والبنادق ويبيعون المئونة ويقرضون الاموال وهؤلاء هم الرابحون على كل حال والكل مسخرون لهم من اعظم ملك الى احقر صعلوك . ولا ندري متى يستفيق الناس من غفلتهم تاركين هذا الاثر الوحشي الباقي من عصر التوحش ولعلهم لا يستفيقون الاَّ بعد ان تنتشر الاشتراكية في الدنيا وتنقل عروش الملوك وتخرب بيوت ارباب الاموال

ومن شاء الاطلاع على معاهدة باريس برمتها فيراها في الجزء الخامس من منتخبات الجوائب وفي قاموس الادارة والقضا